منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الهدى للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5056) السنة التاسعة عشرة - الاربعاء (3) تشرين الثاني 2021

سانت إكزوبيري

أنطوان دو سانت إيكزوبيري..«إيكاروس» بجناحين من ورق

أحلام الطاهر

كان يا مكان في قديم الزمان أميرٌ يسكن مع زهرة حمراء على كوكب بالكاد يكبره حجماً، وكان بحاجةٍ إلى صديق. جميعنا التقينا «الأمير الصغير» المقيم في وحدته هناك، ورُوِيَت لنا حكايته، ولا سيما حكاية حبه زهرة كان يعتقدها فريدة في الكون، وتنقّله بين الكواكب والعوالم، وصداقته مع ذلك الثعلب الذي يطلب منه أن يروّضه كي يصبح الاثنان فريدين في عالم متشابه. من التيفيناغ إلى طريقة بريل للمكفوفين، ومن الحسانية إلى البشتو تُرجم الكتاب إلى أكثر من ٣٠٠ لغة ولهجة محلية. لكن الشهادات التي نقرؤها عن مؤلفه أنطوان دو سانت إكزوبيري (١٩٠٠ ــ ١٩٤٤) على وفرتها لن تستحيل «إنجيلاً» معتمداً يقدم صورة كاملة عنه، فهو أولاً مؤلف شخصية أسطورية ساذجة أذهلت أجيالاً من القراء. وأيضاً مخترعٌ مولعٌ بالفيزياء والرياضيات، في رصيده أكثر من ١١ شهادة براءة اختراع في تطوير محركات الطائرات، بالإضافة إلى كونه موظفاً من أولئك الذين يعطّلون الملفات وطيّاراً جعل من مهنته حيزاً للمعادلة الروائية، موظّفاً إياها جسرَ عبور إلى خمسة كتب، ليبدو الطيران والكتابة نسيجاً مشدوداً كضفيرتيّ «دي أن إيه» معقودتين ببعضهما.

> ظل اختفاء أنطوان دو سانت إكزوبيري على متن طائرة «لوكهيد بي-٣٨ لايتنغ» التي أقلعت في مهمة استطلاعية فوق المتوسط لغزاً، إلى أن عُثر على سلسلة يده بالقرب من مرسيليا كان اسم زوجتَه محفوراً عليها. وفي عام ٢٠٠٣، تم العثور على أجزاء من الطائرة. ولأن قيادة قوات الحلفاء كانت قد أكدت أن المنطقة لم تشهد، في الحقيقة، أي معركة جوية، فقد اعتبر مفقوداً حتى نشر أحدهم مذكرات تبدأ بـ«يمكنكم التوقف عن البحث. أنا من أطلق النار على سانت إكزوبيري» وهو هورست ريبرت طيار في سلاح الجو الألماني، لم يغفر لنفسه قتل كاتبه المفضل في ٣١ تموز (يوليو) ١٩٤٤.
>
> عزا البعض الاهتمام الاستثنائي بسانت إكزوبيري لكونه طياراً وحسب. جان فرنسوا رافيل على سبيل المثال اتّهمه في منشور احتجاجي باستبدال الدماغ البشري بمحرّك طائرة قائلاً: «صار نبياً رغم أن معجزته الوحيدة أنه كشف للفرنسيين بأن الغباء يصبح حقيقة فلسفية عميقة إذا ما رفعناه عن الأرض مسافة سبعة آلاف قدم». ولم يتوانَ في وصف مؤلفاته بـ«الاستغباء من قمرة القيادة». ولنا أن نتساءل أيضاً من كان سانت إكزوبيري حقاً؟ كاتب أصيل أم قيمة أدبية زائفة؟ وتبقى أفضل طريقة لمعرفة ذلك الغوص في حياة وأدب مؤلف أشهر كتاب فرنسي وُضع للأطفال في القرن العشرين والأعلى مبيعاً بعد الكتاب المقدس.

الطفولة: الحديقة الذهبية

حكاية أنطوان دو سانت إكزوبيري هي حكاية طفل يلهو بجنود بلاستيكيين، ولد في فرنسا تهدهدها أوهام العظمة وسيرَ ملحمية لقادة عظام تُروَى بطولاتهم للأجيال اللاحقة بلغة تشبه الصوت الكورالي الذي يتغنى بالمبادئ والنظام وانصهار الفردانية في المعارك الفعلية. وتمت تنحية الحرب جانباً حين فُسِّرت بوصفها نظاماً من الرموز والاستعارات والمجازات، لكن هذا التضليل الذي أحدثته في العقول والقلوب المغامرات والمآثر الإنسانية الفائقة للجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى -في معركة آراس على سبيل المثال- ستزول إلى الأبد بعد هزيمة ١٩٤٠. لكن ليس قبل أن تطبع بعمق جيلاً بأكمله بين الحربين العالميتين. جيل ينتمي إليه سانت إكزوبيري ويعتبر النصر في ساحات الحرب علامة التفوق الروحي والأخلاقي.

أنطوان هو الابن الذي طال انتظاره لجان وماري دو سانت إكزوبيري، ولد في ليون في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٠٠. رغم وفاة والده بسكتة دماغية في محطة قطار قبل عيد ميلاده الرابع، إلّا أن الحنين إلى سنواته الأولى سيطارده بقية حياته: «لستُ متأكداً من أنني عشت منذ الطفولة»، أو «يا له من منفى مضحك أن يتم نفيك خارج الطفولة». كما لو أن حياة مؤلف «الأمير الصغير» كانت فقط مواجهة طويلة ومؤلمة بين الطفل الذي كانه والرجل الذي عليه أن يكون: «لماذا هذه الرغبة في مواجهة الرجل بشبح طفل ضعيف؟».

سرعان ما سيحل محل الأب المفقود أب آخر مثالي تظهر ملامحه جلية في رواية «القلعة» التي لم تكتمل ونشرت بعد رحيله. يتراءى فيها أمير الصحراء، هذا الأب الخيالي وهو يلقن ابنه الحكمة والقيادة: «إذا أردتُ، أستطيع إنشاء حضارة متّقدة بالحماس، كتائبها مفعمة بالبهجة وتنبعث الضحكات الصافية من العمّال العائدين في نهاية النهار. حب الحياة فيها شديد، والأمل قوي في معجزات يأتي بها الغد. وقصائد يُسمع فيها للنجوم صدى».

لطالما كان سانت إكزوبيري طالباً مشتت الذهن، يعاني من الاستيقاظ في السادسة صباحاً ومن دروس النحو، لكنه كان يعود خلال العطل إلى سان موريس، مملكته المشتهاة التي يسودها قانون واحد: اللعب، وأحياناً الاختراعات الخطيرة، مثل اختراع دراجة هوائية طائرة، بالإضافة إلى استغراقه في دروس الغناء وكتابة المسرحيات والتعرف إلى أنواع الأعشاب والزهور. يقول: «أتذكر ألعاب طفولتي، الحديقة المظلمة والذهبية المأهولة بالآلهة. المملكة التي لا حدود لها التي خلقناها من كيلومتر مربع، لم نستطع أبداً أن نكتشفه أو نسبر أغواره بالكامل». وقد وثقت شقيقته سيمون ـ التي كانت مثله شغوفة بالكتابة ـ هذه الذكريات في كتاب بعنوان «خمسة أطفال في حديقة».

طيران ليلي

كان سانت إكزوبيري متذبذباً في خياراته، انحاز في البداية إلى مدرسة الفنون الجميلة التي التحق بها كمستمع لدراسة الهندسة المعمارية. وحين بدأ خدمته العسكرية، أخذ دروساً خاصة في الطيران ليعُرض عليه في العام التالي التحول إلى القوات الجوية الفرنسية ويتم تعيينه طياراً في الفوج ٣٧ المقاتل في الدار البيضاء. ستتراءى له البيئة الجديدة كحلم ظل يستحضره طازجاً في كل كتاباته. رغم الحرارة والجفاف والملل بدا مذهولا بمشاهد الصحراء «أرى من المساء رجالاً عجائز رائعين ونساء صغيرات كالنقط، تبرز هاماتهم باللون الأسود من الغيوم الحمراء وتتحلل ببطء حتى تتوارى خلف الجدران». لكن بعد عودته إلى أجواء باريس المليئة بشعور باللاواقعية، أذعن إلى اعتراضات عائلة خطيبته، الروائية المستقبلية لويز دو فيلموران، وترك مهنة الطيران «الخطرة» ليتولى وظيفة محاسب، حيث كان يتحلّل من الضجر في ساعات الدوام: «أتثاءب في مكتب مترين في مترين وأشاهد سقوط المطر في الفناء الذي تطل عليه نافذتي، بينما أقوم بعمليات جمع وطرح». وسيتحرر في النهاية من هذا القفص منفصلاً عن خطيبته ويلتحق بشركة «لاتيكوير» كطيار عام ١٩٢٦ وينشر في العام نفسه أول قصة قصيرة له.

استتبع سانت إكزوبيري اشتغاله على اللغة التي تنقل تجربته كمدير ترانزيت الخطوط الجوية لمطار كيب جوبي في المنطقة الإسبانية جنوب المغرب، في الصحراء الكبرى، حيث شملت واجباته التفاوض بشأن الإفراج الآمن عن الطيارين المفقودين الذين أخذوا كرهائن من قبل قبائل الصحراء الكبرى، وهي مهمة محفوفة بالمخاطر أكسبته وسام الشرف من الحكومة الفرنسية. وسيُعيَّن في عام ١٩٢٩ مديراً لفرع للشركة العامة للبريد الجوي في الأرجنتين، يتفقد الطرق الجوية الجديدة عبر أميركا الجنوبية ويشارك في بعثات البحث عن الطيارين المفقودين.

هذه الطرق الجوية المحفوفة بالمفاجآت وفّرت المادة الخام لروايته «بريد الجنوب» (١٩٢٨) التي ولدت من تأملاته في عزلة طرفاية في الصحراء المغربية تلتها رواية ثانية «طيران ليلي»، كتب مقدمتها أندريه جيد وفازت بجائزة «فيمينا»، لكن مشاهدها تمجّد روح الفتوة والولاء للقائد البطل، وتضعنا أمام شخصية ريفيير القائد المغامر بحياة الطيّارين لإحراز انتصاراته في ساحة صراع تجاري شرس. وللعبارات التي يرددها القائد في صيغة حكَم، من قبيل «ليست سعادة الإنسان في الحرية إنما فَي تقبّل واجب ينهض به» و«أحبّ من تقودهم ولكن من دون أن تخبرهم بذلك» أن تُقرأ اليوم كمديح للنظام الشمولي وقد ساهمت آنذاك في تشويه صورة سانت إكزوبيري بين مثقفي عصره رغم أنه نقل ما عايشه في عوالم شركات الملاحة الجوية وسباق السرعة مع وسائل النقل الأخرى.

السقوط الأول

مثل فابيان الذي يصارع عواصف الثلج والضباب في «طيران ليلي»، وافق سانت إكزوبيري على المشاركة في رحلة باريس - سايغون على أن يصل بين المدينتين في أقل من خمسة أيام وأربع ساعات وكانت وزارة الطيران آنذاك تختبر قدرة طائرات النقل على التحمل وتعطي مكافآت للطيارين الأكثر جرأة. لكن طائرته ستصطدم بهضبة وتسقط في الصحراء. يقول «الصحراء؟ لقد أتيحت لي الفرصة لأقترب منها يوماً ما، لأحفظ خطوطها عن ظهر قلب [...] وجدت نفسي في مصر، على حدود ليبيا، عالقاً في الرمال كما في الصمغ واعتقدت أنني سأموت». انتشله البدو بعد ثلاثة أيام من التجوال اليائس، وكان يشارف على الهلاك من العطش، حينها قال عبارته الشهيرة: «الغرق في وسط المحيط أهون من الغرق في هذه الصحراء». وبعد شهر قضاه في القاهرة، عَاد إلى فرنسا ليكتب مغامراته في سلسلة من المقالات لصحيفة L›Intransigeant ويُدرجها لاحقاً في فصل من «أرض البشر» (١٩٣٩). الحساسية الأدبية هنا مستقاة أساساً من التوثيق، ولا دور للمخيلة في صناعتها، بل للأمر الواقع، وهذا ما يمايزها، وبذلك سيتم إرساله لتغطية الحرب في إسبانيا حيث سيكتب

المانشيت المدوي: «هذه الحرب ليست سوى بروفة لصراع على وشك أن يندلع في فرنسا».

سلّة السرطانات

تصدُق النبوءة لتغدو الحرب ظرفاً حياتياً يضطر سانت إكزوبيري أن يختبره ويرى رفاقه يسقطون ويختفون ويقتلون في ١٩٤٠. كابد «الطين والمطر وآلام الروماتيزم في المزارع والأمسيات الخاوية والشك والخوف على علو عشرة آلاف متر» لكن الأسوأ قد حدث، فقد سقطت فرنسا بيد ألمانيا النازية وأعلن المارشال فيليب بيتان الحكومة الفيشية موقّعاً اتفاقية الهدنة التي تقسم البلاد لمنطقتين، الأولى خاضعة للسلطة العسكرية الألمانية المباشرة والمنطقة الثانية تبقى تحت السيادة «الشكلية» الفرنسية. وانضم بيار لافال للحكومة ليصبح فيها المهندس الرئيسي للنظام الفيشي، التقاه سانت إكزوبيري حين ذهب للحصول على تأشيرته الأميركية وأشار إليه بصوت عالٍ «ها هو الرجل الذي باع فرنسا!». وحين تأكد من أنه سمعه، أضاف مخاطباً رفاقه: «حسناً الآن وقد قلتُ ما يكفي ليطلقوا عليّ النار صباح الغد، ما رأيكم أن نذهب في نزهة؟».

على مدى ستة أشهر، فشلت كل محاولات صاحب «رسالة إلى رهينة» (١٩٤٣) في توحيد أبناء بلده الذين بدوا خانعين للاحتلال راضين بمصيرهم في بلد أصبح شبيهاً بخلية واحدة تنقسم إلى نصفين يحدق واحد منهما فقط بالآخر ويتمحص فيه كغريب. فقرر الرحيل إلى الولايات المتحدة لتغيير الرأي العام الأميركي من الموقف الانعزالي إلى دعم المشاركة المباشرة في الحرب، ولبى دعوة ناشره كيرتيس هيتشكوك للبقاء بضعة أسابيع للمشاركة في ندوات قبل العودة إلى شمال أفريقيا للقتال. لكن منفاه سيدوم أكثر من عامين، ليجد نفسه في مجتمع فرنسي وصفه بـ«سلة السرطانات» مزقته المشاحنات الحزبية ويجر عليه موقفه «اللاسياسي» عداوات في كل من المعسكر الديغولي وجماعة فيشي.

(لا شك أنني أحلم)

الشقة التي أقام فيها أنطوان دو سانت إكزوبيري تقع في الطابق الثالث والعشرين من مبنى يطل على سنترال بارك. زوجته كونسويلو «المرأة البركانية» من السلفادور، ستصرّ على أن تنضمّ إليه بعد ذلك بعام وتسكن شقة أخرى على بعد بضعة طوابق. يعيش كل واحد منهما مغامراته العاطفية على حدة ويلتقيان في المشاجرات وحفلات العشاء قبل أن يعودا للسكن معاً من جديد في لونغ آيلاند في بيت مترامي الأطراف ثم في مانهاتن على امتداد إيست ريفر. يُقال إنها كانت ترميه بصحون فناجين الشاي وهو يتفاداها الواحد تلو الآخر بينما يواصل التحدث إلى ضيوفه. كان يبلغ أربعين عاماً آنذاك، يوقظ أصدقاءه في ساعات غير معقولة ليقرأ لهم آخر ما كتب ويحلم بالعودة إلى القتال قبل قضاء بقية أيامه في دير للرهبان. كان يعاني من الأرق والاكتئاب رغم أنه كان يتمتع بشهرة مطلقة في أميركا، فقد باعت «أرض البشر» ٢٥٠ ألف نسخة وحازت مع «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك «جائزة الكتاب الوطني للولايات المتحدة».

يبدأ «الأمير الصغير» من الحلم والطبيعة وتلقائية العواطف بوصفها عناصر للمقاومة وتشييد عالم ممكن

كتاب «الطيار الحربي» استهله بجملة بسيطة على طريقة كامو: «لا شك أنني أحلم» ليسجّل موقفاً إنسانياً رؤيوياً شاملاً، كما هي الحال في بعض الأعمال الروائية التي يسقط أصحابها في بئر التنظير. قرأه روجيه مارتين دو غار في نيس عام ١٩٤٣ ولخص انطباعاته قائلاً: «إن سانت إكزوبيري مُلهم طالما يكتفي بالحديث عن مهنته كطيار، ولكن حين يَخوض في الأخلاقيات ويريد أن يستخلص من تجربته الشخصية عقيدة وأسلوب حياة يصبح لا يطاق. الكتاب طموح جداً لكن النهاية مخيبة للآمال». وقد كان من المقرّر أن يصدر الكتاب في ١٩٤٢ في أميركا، لكن الكاتب استمر في الحذف والإضافة، ولم يسلّم المخطوط إلا في العام التالي. وفي هذه الأثناء، كانت اليابان قد نفذت غارة جوية مباغتة على بيرل هاربر أرغمت الولايات المتحدة على دخول الحرب. وها قد حان أخيراً وقت الطيار كي يقنع الرأي العام الأميركي أنّ الفرنسيين ليسوا جبناء ومتعاونين مع النازية. ولذلك، كان تأثير الرواية فورياً لأنها تحرّض على الصراع من أجل قتل الخوف وإثبات الذات، تواطأ معها القارئ الأميركي وبيعت حوالى ١٥٠ ألف نسخة. أما في فرنسا، فقد سمح الرقيب الألماني جيرهارد هيلر بنشره بعد محو جملة واحدة «هتلر الذي بدأ هذه الحرب الوحشية»، لكن الأصوات المنددة سترتفع من معسكر فيشي لأن المؤلف يحتفي بشجاعة رفيق سلاح يهودي. أما المعسكر الديغولي هو الآخر، فسيكشر عن أنيابه لأنه لا يحب كثيراً لعبة الغميضة التي تعتمد إرسال القارئ إلى غياهب النفس البشرية، لتفكيكها وترويضها، خاصة أن النهاية جاءت غامضة: «غداً سنلتزم الصمت أيضاً» يكتب سانت إكزوبيري «غدا أمام الشهود سنكون المهزومين، وعلى المهزومين أن يصمتوا مثل البذور». كلمة بذور هنا تدل على أن شيئاً ما يُدبَّر في الخفاء، شيئاً ما سيزهر أخيراً في هذا الخراب لكن التشبيه هش للغاية ودقيق للغاية كي لا يسحقه حذاء عصر لا تُقبل فيه أنصاف المواقف.

في هذه الأثناء على الكوكب ب ٦١٢، كان الأمير الصغير يعرف جيداً أن «الشيء المهم لا تبصره العين»، وكان يراقب يومياً الشمس وهي تغرب أربعاً وأربعين مرة في انتظار أن تنمو زهرته الفريدة بأربع أشواك تحتمي بها من العالم.

الأمير الصغير

في بانيو الشقة ٢٢٠ في سنترال بارك ساوث، يقوم سانت إكس كما يسمّيه المقربون بتجارب علمية بالألعاب للتفكير في عمليات الإنزال. يتخيل الأمواج والتيارات والغواصات ويصنع طائرات ورقية يجمعها في سلال كبيرة ثم يرميها الواحدة تلو الأخرى في سنترال بارك مثل طفل كبير بائس، نصف أمير نصف ليوناردو دا فينشي، آلاته ونصوصه تحلم بالحرية، لكنها تصطدم بحرية الرجل الديمقراطي الأميركي التي لا تتعدى «شراء جريدته الصباحية لاستيعاب هذا الفكر الجاهز والاختيار بين ثلاثة آراء لأنهم اقترحوا عليه ثلاثة آراء». وعلى الرغم من نجاح «طيار حربي»، إلا أن حالة سانت إكزوبيري الصحية تدهورت جراء معاناته من عواقب حادث قديم وانتهى به المطاف في المستشفى في لوس أنجلس حيث اكتشف حكاية حورية البحر الصغيرة لأندرسن، وحفزه ذلك على كتابة حكايته مستعيناً بعلبة من الألوان المائية أهداه إياها صديقه المستكشف بول إيميل فيكتور، ليولد الأمير الصغير بقامته الظليّة وشعره المجعد الأشقر على ورق يسمّى Onion skin paper لأنه في منتهى الرقة.

تقول الأسطورة إن يوجين رينال الناشر الأميركي، رأى ذات يوم «الأمير الصغير» مرسوماً على زاوية من زوايا ورق الطاولة في مطعم «أرنولد» في نيويورك. وحين سأل «من هذا»، أجاب سانت إكزوبيري: «لا أعلم، ولكنّ هذا الفتى الصغير ذو الوشاح يطارد خيالي منذ سنوات». في السادس من نيسان (أبريل) ١٩٤٣، صدر كتاب «الأمير الصغير» عن دار «رينال أند هيتشكوك» الأميركية، بعد مرور أكثر من ستة أشهر على اقتراح رينال بأن يُحرر أنطوان الصبي الذي يرسمه بجعله بطلاً لقصة للأطفال تُعرض في واجهات المكتبات في أعياد الميلاد. يبدأ كتاب «الأمير الصغير» من الحلم والطبيعة وتلقائية العواطف بوصفها عناصر للمقاومة وتشييد عالم ممكن، ويروي اللقاء بين طيار تعطلت طائرته في الصحراء يوقظه صبي صغير هامساً «من فضلك ارسم لي خروفاً»، ليتبين أنه أتى من الكوكب ب-٦١٢، الذي تركه لكثرة متاعبه مع أهم ما يملك، وهي زهرته الفريدة، عندما لم يكن مستعداً لها، «فهو صغير ولا يعرف كيف يحب الأزهار بعد». يبدو لنا الكتاب أمثولة فكرية متكاملة، نصاً فلسفياً يدنو من «روبنسون كروزو»، وبالتالي من «حيّ بن يقظان» أكثر من دنوه من أي كتاب آخر، خاصة حين نتأمل سخرية الكاتب من عالم البشر عبر أفكار ورحلات الأمير بين الكواكب؛ من الملك الذي يظن أن كل الناس رعاياه وعبيده، وحتى النجوم عليها واجب الطاعة، والرجل المغرور الذي لا يسمع سوى الإطراء ويردد على الدوام «قدم لي خدمة، حاول أن تُعجب بي»، ومدمن الخمر الذي يشرب لينسى خجله من شربه للخمر ورجل الأعمال المنهمك في عدّ نجوم السماء التي يظنها في حيازته ومن حقه. المناخ ومفردات القصة تحيلنا إلى حياة المؤلف الشخصية؛ فالثعلب كان قد رآه أثناء طيرانه ذات يوم في الصحراء الموريتانية، وأشجار الباوباب الضخمة لمحها من سماء السنغال، أما الوردة، فتشير دلائل كثيرة إلى أنها ليست سوى زوجته كونسويلو التي يخاطبها قائلاً: «ما كان عليّ أبداً أن أهرب، كان عليّ أن أدرك الحنان الكامن خلف حيَلها. إن الزهور تناقض نفسها دائماً، لكنني كنت أصغر من أن أعرف كيف أحبها».

عن الاخبار اللبنانية

أنطوان دي سانت اكزوبيري ملحمة وجودية بصوت طفولي

د.محمد إبراهيم الزموري

تمكننا الكتب الجيدة، من نبش الماضي وفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، سواء كان الكتاب فكريا او علميا أو ادبيا، فهو يملك من السحر الكثير ومن المخزون الفكري ما يوضح الرؤى، سواء كان موضوعيا أو ذاتيا، فهناك دائما رسائل مبطنة مهما بدت بسيطة في صياغتها، يقول أمين معلوف «إذا قرأت «قراءة فعلية» أربعين كتابا حقيقيًا خلال عشرين عامًا، فبوسعك مواجهة العالم».

فهناك العديد من القصص التي تشبهنا، وتتقمص واقعنا السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعاطفي، وربما هو راجع إما لفرط تأثرنا بالكتاب أو أن الكتب الجيدة والصادقة تأسرنا وتحكمنا في شع ابداعها الملهم، يقول ارنست هيمنغواي «جميع الكتب الجيدة متشابهة بأنها أكثر صدقا مما لو كانت تروي ما حدث فعلا، ومع ذلك ستشعر بعد الانتهاء من قراءة أحدها أن كل ما حصل بها قد حصل لك أنت، وكل شيء ينتمي لك».

من ضمن تلك الكتب المؤثرة نجد رواية «الأمير الصّغير» للكاتب والطيار الفرنسي أنطوان دي سانت إكزوبيري، نُشرت الرواية لأوّل مرّة سنة ١٩٤٣ في نيويورك، ولاقت منذ ذلك الحين رواجًا هائلًا بين النّاس من مختلف الأعمار، وتُرجمت إلى أكثر من ٣٠٠ لغة، وتمّ عرض قصّتها في الأفلام والرسوم المتحرّكة والقصص المصوّرة، كما تدرّس هذه الرواية في المقرّرات الدراسية للأطفال وفي الجامعات، ففي صيف العام ١٩٤٢ عندما كان أنطوان دي سانت اكزوبيري يعيش منفيا في نيويورك، وكانت حينها فرنسا محتلة، ولدت حكاية ذلك الكتاب من لحظة مزاح، رسم فيها اكزوبيري صبيا أشقر على غطاء طاولة في أحد مطاعم نيويورك، كان أحد الناشرين الأميركان حاضرا، فطلب منه أن يكتب قصة للأطفال، يكون ذلك الصبي بطلها.

وهذا ما حدث، كتاب صنعته الصدفة، غير أن الألم الممتزج بالألم كانا حقيقيين، وهو ما يسّرَ للكاتب أن يبعث رسائل إلى البشرية محملة بالدعوة إلى السلام والمحبة من خلال براءة لغة ذلك الصبي، ولأن اكزوبيري كان طيارا وقد سبق لطائرته أن تعطل محركها وهبط بها في الصحراء، فقد كان ميسرا عليه أن يتخيل ما الذي يمكن أن يفكر فيه فتى قادم من كوكب بعيد وجد نفسه في بيئة لم تكن تحمل الكثير من الإشارات الإيجابية وهو ما جعل غربته مضاعفة.

حكاية الصبي الغامضة هي نفسها حكاية مؤلفها، فالاثنان يشتركان بشعور عميق بالضياع والشك الذي يحيط مصيرهما، لقد تكلم اكزوبيري بلسان الأمير الصغير ما كان يفكر فيه في واحدة من لحظات حياته الملتبسة.

تحدثت الرواية عن الحلم وكيف يتم استهزاء الكبار من أحلام الأطفال والمراهقين إلى التجارب السيّئة والعراقيل الكثيرة التي مرّوا بها وأخمدَت فيهم شرارة الأمل والممكن، لكن هل يجوز أن تقتل الحلم في شخص آخر لمجرّد أنّ الحلم داخلك قد مات؟

وتتحدث عن الوجود فأثناء زيارته لعدد من الكواكب، تعرّف الأمير الصغير على عدد من الشخصيات، تعيش كل واحدة منها وحيدة على كويكب صغير جدًا، من بينها: مَلِك يؤمن بأنّه يحكم كل شيء حتى النجوم والمجرّات البعيدة، ومهرّج متلهّف للإعجاب والتصفيق، وسكّير يشرب الخمر للهروب من عار شرب الخمر، ورجل أعمال يمضي كلّ وقته في حساب عدد النجوم لأنّه يعتقد أنّها ملكه، وباحث في الجغرافيا لم يخرج يومًا من مكتبه، ورغم الاختلاف الظاهري بين هؤلاء الأفراد، إلاّ أنّهم جميعًا يشتركون في صفة واحدة: «انعدام الفائدة»، فكلهم منغلقون في عالمهم الصغير داخل قوقعة متعفّنة من الانطواء على الذات.

لو أنّ واحدًا من هؤلاء وقف أمام نفسه بصدق، ووضع طريقة تفكيره أمام الامتحان بصدق، لاكتشف مدى عبثيّة الأسلوب الذي يقضي به حياته، وربّما، هذا ما يجب أن يفعله كلّ واحد منّا أيضًا! أن نقف أمام ذواتنا لنحاول تقييم أنفسنا بكل موضوعية، وتحديد ما إذا كان وجودنا على هذا الكوكب يجلب نفعًا لنا وللآخرين، أم أنّنا نعيش فقط في دائرة مغلقة من الفراغ الوجودي؟

الرّواية تحدّثت بإسهاب عن قيمة الحبّ، وأهمية الوقت الذي نقضيه مع أحبّائنا والجهد الذي نبذله للعناية بهم، تذكّرنا كذلك بأنّ «الأمور المهمّة لا تُرى بالعين، بل بالقلب»، وغيرها من النّصائح البسيطة التي ننساها في زحام الأيام.

ونصطف اتفاقا مع ما ذهب اليه الكاتب فاروق يوسف من أن «الأمير الصغير» كتاب لا نمل من قراءته، ذلك أنه يضيف إلى متنه جملة خفية بعد قراءة كل جملة منه، إنه «أمير الكتب وأبهجها» حسب قول أحد النقاد، كتاب طيّار كصاحبه لا يأبه بالمطبات، ولا يحط إلا على أصغر الكواكب وألطفها في تلافيف العقل البشري، كتاب «الأمير الصغير» ينتمي إلى فصيلة الكتب التي «تُميت ولا تموت».

لم يعش اكزوبيري طويلا حتى يرى الفتى الذي رسمه خلسة على إحدى مناضد الطعام في مطعم بنيويورك، وقد تحول إلى أيقونة شعبية تزين القمصان والقبعات والأشرطة الاحتفالية، وتحتل دميته واجهات المخازن الكبرى في مختلف أنحاء العالم، لكن لو كان الأمر بيد اكزوبيري لما سمح بأن يتحول أميره الحزين إلى وجبة استهلاكية تدر على الرأسماليين أموالا يستحقها العشاق الفقراء.

مرتبط

(الأمير الصغير)

يبلغ الشيخوخة على كوكبه ورؤيته تختلف

كاتيا الطويل

لم يتوقع الكاتب والطيار الفرنسي أنطوان دو سانت إكزوبيري (١٩٠٠- ١٩٤٤) أن يضع قصة فلسفية ستتحول إلى أكثر كتاب يحصد أرقام مبيع في الأسواق العالمية والمكتبات. لم يتوقع كاتب القرن العشرين هذا، أن يترجم عمله "الأمير الصغير" الذي لا يتعدى المئة والعشر صفحات، إلى أكثر من مئتي لغة، وأن يكون أكثر الكتب ترجمة في العالم من بعد الإنجيل المقدس. ولم يتوقع هذا الجندي الفرنسي الوطني الذي توفي من أجل وطنه، أن توافيه المنية بالطريقة نفسها التي يلتقي بها الراوي بالأمير الصغير، سقوطاً من طائرته.

يرجح كتاب السير أن أنطوان دو سانت إكزوبيري توفي عندما سقطت طائرته في إحدى رحلاته الجوية الاستطلاعية التي كان فيها بمفرده، ويرجحون أن ألمانيا أسقطها عمداً، وليس الأمر بحادثة ناجمة عن عطل تقني. وقد بدأت هذه النظريات بالتبلور عندما اكتُشفت جثة الكاتب في سنة ١٩٨٨ على أحد شواطئ فرنسا الجنوبية قبالة مرسيليا. وسانت إكزوبيري، الذي دأب على تحليل قيم مجتمعه وأخلاق أهله كما دأب على متابعة الأخبار السياسية المحيطة به، عرف عنه خوفه من أن تبتلع دول المحور (إيطاليا- ألمانيا- اليابان) العالم بأسره وأن تسيطر بقيمها الفاشية النازية الاستبدادية على دول العالم كله، فكان في الولايات المتحدة في رحلة دبلوماسية عندما وضع مؤلفه الفلسفي "الأمير الصغير" القائم على نص وصور مطعمة بحكم وفلسفات وقيم إنسانية.

وعلى الرغم من أن البعض قد يعتبر الرواية القصيرة "الأمير القصير" قصة للأطفال، فإن المسألة تتخطى ذلك بوضوح. فهذه القصة الشاعرية المنحى، الفلسفية العمق، إنما هي رؤيا للعالم ودعوى إلى التأني والعيش بحكمة وحب وتفاؤل. إن الراوي الذي تسقط طائرته في الصحراء ويلتقي "الأمير الصغير" الآتي من كوكب آخر يفهم معاني الصداقة والاهتمام بالآخر وتكريس الوقت للآخرين. فمن منا لا يحفظ الجملة الشهيرة "إنما بقلبه يرى المرء بوضوح، فالجوهر غير مرئي للعيون". أو الجملة الرائعة "إنه الوقت الذي كرسته لوردتك، ما يجعل وردتك مهمة للغاية". اعتمد الكاتب الفرنسي الأربعيني الحكاية الرمزية وسيلة للتعبير عن قضايا مجتمعه وهمومه ومخاوفه. أوصل سانت إكزوبيري الواقع الإنساني عبر وردة وأفعى وثعلب وشخصيات من كواكب مختلفة ليرمز إلى أفكار إنسانية ومفاهيم حياتية أرادها لإنسان زمنه.

يجد القارئ العربي اليوم نفسه أمام هذا "الأمير الصغير" نفسه إنما بعد سبعين عاماً، فيقدم الرسام والكاتب نبيل أبو حمد قصة قصيرة بنص ورسومات مائية تشكل تابعاً لقصة سانت إكزوبيري وتكملة لها إن شئنا. وقد صدرت عن الدار العربية للعلوم ناشرون (٢٠٢١) بعنوان "شيخوخة الأمير الصغير". أبو حمد قلب الأدوار هذه المرة وأرسل راويه رائد الفضاء القادم من كوكب الأرض إلى كوكب "الأمير الصغير"، فماذا وجد هناك على كوكب هذه الشخصية الأسطورية، وهل نجح أبو حمد في الحفاظ على روح نص أنطوان دو سانت إكزوبيري الأصلي المطعم بالرمزية والفلسفة والإيحاءات؟

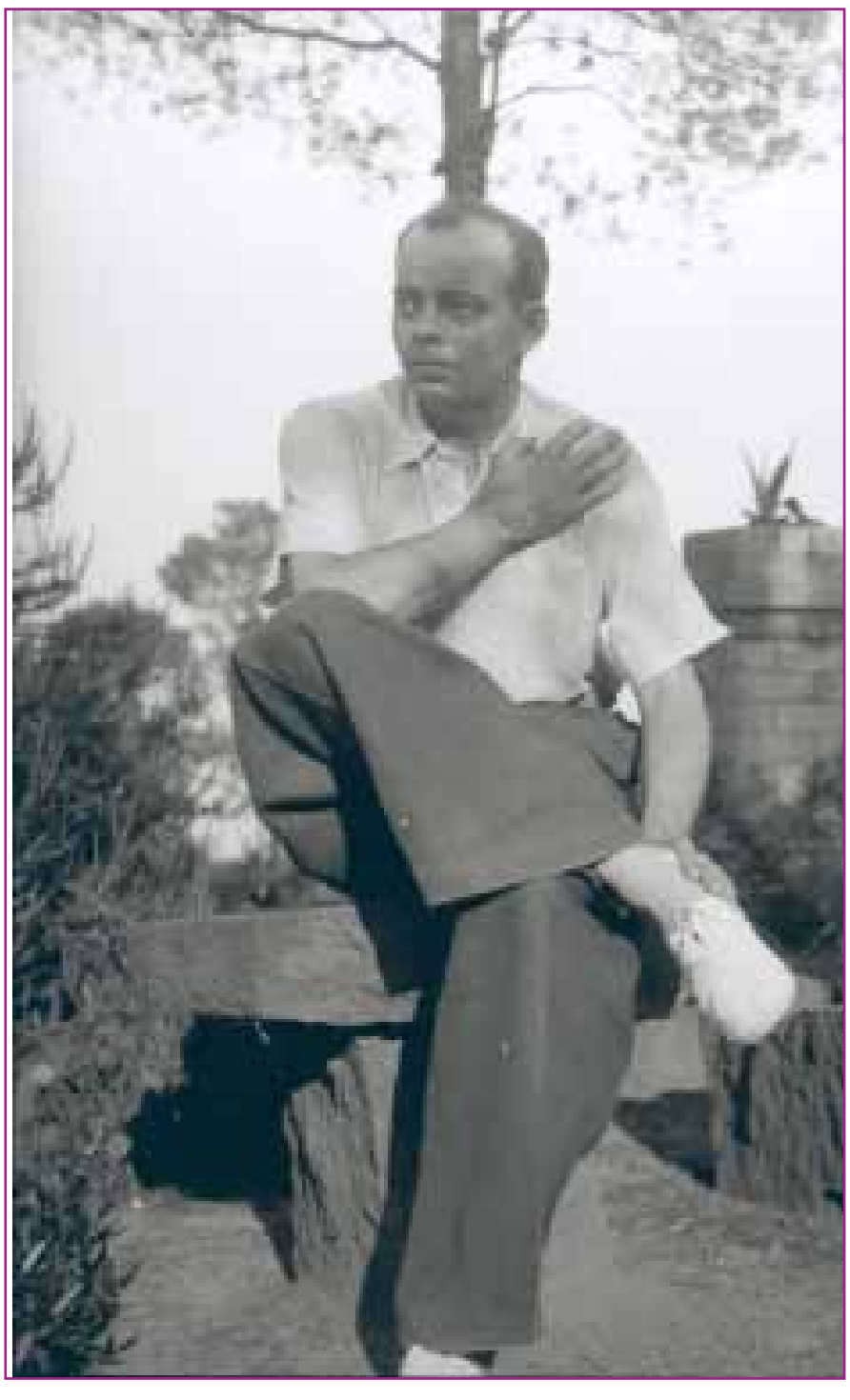

فضاء سردي فني

في بنية قائمة على التوازي السردي، قدم نبيل أبو حمد رحلة مضادة لرحلة قصة «الأمير الصغير». فبينما يأتي الأمير الصغير في قصة سانت إكزوبيري إلى كوكب الأرض ليكتشفه ويكتشف عادات أهله، يرسل أبو حمد رائد فضاء إلى كوكب الأمير الصغير، أو مجرته كما سماها، وذلك بمحض مصادفة ناتجة عن عطل تقني في مركبة الراوي الفضائية. وبينما يكون راوي سانت إكزوبيري مرشد الأمير الصغير على كوكب الأرض، يتحول الأمير الصغير مرشد راوي أبو حمد، فيمشي معه على سطح كوكبه ويجعله يكتشف المباني والناس والحدائق والساحات والعادات والتقاليد. فيصف أبو حمد الاستقبال الذي تلقاه عند وصوله إلى هذا الكوكب الغريب قائلاً «مخلوقات تحمل بعض الزهور ولها رؤوس في شكل علامات استفهام يبتسمون وينحنون مرحبين، وفي وسطهم رجل سميته فوراً الرجل لأنه يشبهنا لكنه كهل وصليع الرأس، له لحية بيضاء وعينان لامعتان يبتسم بمحبة مريحة تدعو للاطمئنان يحمل بيده عكازاً» ص ١٥. ويوسع الراوي وصف الأمير الصغير الذي غزاه الشيب قائلاً «كان ظهره مقوساً للأمام من حيث الرأس... لكنه في الشكل أقرب إلى ملامح أهل الأرض متميزاً عن كل الآخرين... عاد إلي الأمير بابتسامته الرقيقة وقال: لا بد أنك سمعت عني.. فأنا «الأمير الصغير» الذي كتب عني أديبكم المعروف أنطوان دو سانت إكزوبيري روايته الشيقة...» (ص: ١٥).

يختار أبو حمد أن يحافظ على صورة الأمير الصغير الأساسية بملابسه نفسها وتعابير وجهه نفسها، وذلك في صور مائية جميلة وملونة ومنعشة. يضفي أبو حمد على نصه لمسة جمالية وإبداعاً وخيالاً دافئاً عبر تقديمه هذه المائيات الجميلة إلى جانب نصه، ليتحول الكوكب الجديد إلى شيء مألوف بعض الشيء بالنسبة للقارئ وفي متناول يده ومخيلته.

وبينما يختار الكاتب أن يستعيد بعضاً من حكم الأمير الصغير في مواضع من نصه، نراه يضيف إليها شيئاً من لمسته، فيقول في أحد المواضع ملخصاً الحياة "نولد... نؤدي... نموت... هذه هي الحكاية". (ص: ٤٣) يلخص الكاتب على لسان أنثى عجوز من سكان كوكب الأمير الصغير دورة الحياة الإنسانية ببساطة وسلاسة تضارع لغة سانت إكزوبيري الجذلة.

كوكبان مختلفان

يفاجأ القارئ أمام هذا النص بصفات الكوكب التي اختارها أبو حمد لكوكب الأمير الصغير. فالكوكب الصغير القديم الذي ما كانت توجد عليه سوى وردة هادئة مدللة، تحول إلى كوكب يعج بالروبوتات والمباني والساحات. تحول كوكب الأمير الصغير إلى معقل للتكنولوجيا والآلات والتطور الإلكتروني. وعلى الرغم من أن الأمير الصغير هو الكائن الوحيد الذي يملك شكلاً خارجياً يشبه شكل الإنسان، فإن الكائنات الأخرى الموجودة على هذا الكوكب الغريب تملك صفات بشرية كثيرة، فهي تحب وتأكل وتمرض وتتعب وتنام وتنتخب وتعمل وتموت. هناك وظائف وحدائق ووسائل تنقل ووسائل تواصل وتلفاز وأحزاب وموسيقى وغيرها من معالم الحضارة الإنسانية. فأين الوردة، وأين الكوكب الصغير، وأين الشمس التي تغيب ثماني وأربعين مرة؟

يفاجأ القارئ أمام العالم الجديد الذي خلقه أبو حمد لأميره الصغير، فأمير سانت إكزوبيري البسيط الهادئ القادم من كوكب صغير فارغ تغيب الشمس عنه ما يزيد على خمس وأربعين مرة، تحول إلى عالم متقدم جداً تسيطر عليه الآلات والتكنولوجيا. وعلى أن أبرز سمات كائنات هذا الكوكب هي حب المعرفة وحب التطور والسلام والتآخي.

"شيخوخة الأمير الصغير" محاولة جميلة للكاتب نبيل أبو حمد من ناحية النص والمائيات الزاخرة بالألوان والأبعاد الجميلة، محاولة جلبت الشاعر والفيلسوف العربي العريق أبا العلاء المعري (٩٧٣ – ١٠٥٧) نفسه إلى النص بأبياته الرائعة، لتلتقي فلسفته بفلسفة الأمير الصغير الذي يرى جوهر الأمور بقلبه ليس بعينيه: "أما اليقين فلا يقين وإنما – أقصى اجتهادي أن أظن «.

سانت إكزوبيري:
عندما يمتزج الأدب بالحياة

علي حسين

هذا العام في فرنسا هو عام " أنطوان دو سانت إكزوبيري " ، فقد احتفلت الاوساط الثقافية بمرور " ١٢١ " على ميلاده .. وتستعد لاستذكار روايته الشهيرة " الامير الصغير "بمناسبة مرور ٧٨ عاما على صدور طبعتها الاولى والتي باعت في اشهرها الاولى ما يقارب الـ " ١٤ " مليون نسخة ، وترجمت الى معظم لغات العالم ، حتى ان مبيعاتها تجاوزت الـ " ١٥٠ " مليون نسخة .. إلا ان الاحتفال المهم هذا العام بسانت إكزوبيري هو بمناسبة مرور مئة عام على أول رحلة طيران قام بها مؤلف " الامير الصغير " ، وهي الرحلة التي انطلقت في التاسع عشر ايلول عام ١٩٢١ ، وكان فيها في العشرين من عمره يؤدي الخدمة العسكرية .

كتب روايته " الأمير الصغير " أثناء اقامته في نيويورك بناء على طلب أحد الناشرين الذي أراد أن ينشر قصة للاطفال ويعرضها في واجهات المكتبات في أعياد الميلاد. كان يجلس في أحد المطاعم عندما رسم صورة لصبي صغير على غطاء المطعم، فاقترح عليه الناشر أن يجعل من صاحب الصورة بطلاً لرواية تكتب للصغار، ورغم أن الرواية كتبت خصيصاً للاطفال، إلا أن معظم النقاد والباحثين في الأدب يعتبرونها رواية لكل الأجيال لما فيها من الأفكار العميقة التي تجعلها أشبه بنص فلسفي يقدم فيه مؤلفه أفكاره عن الحياة، لتضاف الى سلسلة من الكتب اتخذت من الحكايات البسيطة موضوعاً لها تقدم من خلاله رؤى وأفكار ظلت راسخة في الأذهان مثل "أليس في بلاد العجائب" و "روبنسون كروزو" و "حكايات الأخوين غريم» .

كانت (الأمير الصغير) آخر ما نشره الفرنسي سانت اكزوبيري المولود عام ١٩٠٠، والذي ظل طوال عمره لايريد أن يغادر عالم الطفولة : « من أين أنا، أنا من طفولتي.» كان زملاؤه في المدرسة يسخرون منه بسبب أحلامه غير الواقعية، عمل طياراً لكنه ظل يعشق الكتابة فنشر عام ١٩٢٩ أول رواياته بريد الجنوب، بعدها بعامين تنشر له دار غاليمار روايته الثانية « طيران الليل » التي حققت نجاحاً كبيراً، بعدها يقدم « أرض البشر » وكانت آخر اعماله التي نشرت بعد اختفائه كتاب « القلعة « وهو أشبه باليوميات.

تعرض سانت إكزوبيري للموت مرتين، الأولى في صحراء ليبيا والثانية في غواتيمالا، واعطته هذه التجارب إحساساً صوفياً بدور الإنسان وهو يواجه الخطر، فبالنسبة لإكزوبيري فإن لحظة الميلاد بسيطة ولحظة الموت بسيطة مادامت هذه المراحل تصل بالإنسان الى نسيج يعمق الأخوّة البشرية.

في نهاية روايته " أرض البشر " يلتقي بطل الرواية الذي هو الكاتب نفسه في إحدى محطات القطار بعمال بولنديين يتم ترحيلهم من فرنسا الى بولندا ويرى بين هذه الأكوام البشرية البائسة طفلاً كأنه فاكهة مُذهّبة مثلما يصفه : " هذا وجه موسيقي، هذا موزار الطفل، هذه هدية جميلة من الحياة. وان الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم في الأساطير لا يختلفون عنه في شيء. فماذا يصبح هذا الطفل لو وجد الرعاية والتثقيف؟ ما يعذبني هو موزار الصريع في كل فرد من هؤلاء الناس. وليس هناك إلا الأرواح التي لو هَبت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان « .

كتب إكزوبيري رواية أرض البشر عام ١٩٣٩ ، وبعد أربعة أعوام يكتب الأمير الصغير التي يتناول فيها نقاء الطفولة.. لم يتوقع أن يحقق هذا الكتاب الصغير كل هذا النجاح. فقد كان كل ما يأمله أن يعبر عن بعض الأفكار التي راودته ذات يوم حين تعطلت طائراته في صحراء خالية، في تلك اللحظة التي سيطر عليه الخوف والقلق وهو يحاول أن يصلح عطب الطائرة. يسمع فجأة وسط صمت الصحراء صوتاً طفولياً يقول له : من فضلك أرسم لي خروفاً.. يلتفت في خوف وحذر ليجد أمامه طفلاً له هيئة غريبة ولكن ساحرة. يدور الحوار بين الطيار والطفل الذي يلح عليه أن يرسم له خروفاً فيما الطيار يريد أن يعرف كيف جاء الطفل الى هذه الصحراء.

لقد كان سؤال ماذا نفعل هنا ، مفتاح رواية الأمير الصغير التي حاول إكزوبيري من خلالها أن يقدم لنا حكاية أشبه بالحلم يرويها طفل صغير

نتعرف من خلاله على القيم الإنسانية التي يجب علينا أن نشيعها على كوكب الأرض. يحاول اكزوبيري في الأمير الصغير أن يلخص

تجربته الحياتية، حيث نراه، في رواية تبدو للوهلة الأولى كأنها كتب للصغار، يطرح أسئلة وجودية عميقة وجوهرية، كانت هي الأسئلة السائدة في تلك المرحلة من القرن العشرين، أسئلة إلتقت فيها الفرد إلى داخل ذاته ولا سيما في ضوء الحوادث العاصفة الدامية التي كانت تشهدها تلك السنوات الغريبة من تاريخ القرن العشرين.

الأمير الصغير يسقط من كوكب صغير يعيش فيه وحيدا، كانت في هذا الكوكب ثلاثة براكين يستخدم أثنين منها في الطبخ، بينما الثالث خامد، وعمله اليومي الذي يقوم به هو تنظيف الكوكب من الاعشاب الضارة. من هنا يكشف الطيار سر طلب الأمير رسم الخروف حتى يخلصه من هذه الاعشاب.

ينشغل الطيار في اصلاح طائرته وهو يجيب على اسئلة الأمير الصغير بمنطق الكبار، لكننا امام طفل لايعرف مثل هذا المنطق فنراه ينفجر في وجه الطيار قائلا قد عرف ذات يوم رجلا يقوم بجمع الارقام دائما ويردد " أنا رجل جاد. أنا رجل جاد " ، ولكنه لم يعرف في حياته كيف يتأمل نجما، أو يستنشق عطر وردة، أو يحب إنساناً . ويعرف الطيار ان عالم الأمير الصغير به وردة هي كل همه الحقيقي، لقد اعجب بها ذات يوم فأجابت بغرور : " أنا فعلا جميلة فقد ولدت مع الشمس " ،وفي يوم تطلب منه ان يحميها من النمور وهي تعلم انه لاتوجد نمور في الكوكب، ويحتار الأمير الصغير امام مطالبها فيقرر الرحيل عن كوكبه، ويخبر الطيار قائلا : " أنني لا أفهم شيئاً على الاطلاق، كان يجب عليّ ان أحكم عليها بناءً على الأفعال لا الأقوال. كانت تعطرني وتنير لي، فما كان يجدر بي أن أدرك حنانها وراء خدعها الواهية، فالوردة متناقضة على هذا النحو، ولكني كنت صغيراً جداً حتى اعرف كيف احبها «.

وتدخل الشخصيتان اللتان تنتميان إلى عالمين مختلفين في مناقشات تتراوح موضوعاتها بين العادي والوجودي. وببراءة الطفل، يخترق الأمير الصغير عمق الذات الإنسانية عبر لغة يمتزج فيها الواقع بالخيال. كلمات الطفل، تبدو أكبر حجماً حتى من الطيار ، فهو يكشف عن حقائق وأفكار طفولية يراها أهمّ من مشاكل الكبار اليومية، حتى لكأنه يسخر من سذاجة الراشدين الذين يظنون أنّهم الأعلم في كل شيء. ولعلّ القصة حصدت ما حصدته من نجاح طوال تلك المدّة حيث ترجمت الى مئات اللغات وبيعت منها اكثر من ١٥٠ مليون نسخة، لأنّها نجحت في أن توجد عالماً صادقاً يُعبّر عن أسئلته الكونية الكبرى بأسلوب بسيط يدخل قلب القارئ مباشرة. وبرع سانت إكزوبيري في أن يجعل قارئه، صغيراً كان أم كبيراً، يصاب بالدهشة أمام بساطة هذه الأحداث وعمقها.

يترك لنا سانت إكزوبيري آخر صفحة من روايته خالية تماما، إلا من نجم معلق في السماء، ويقول لنا : " اذا قمتم بسياحة في الصحراء ، أرجوكم الا تتعجلوا ، وانتظروا تحت هذا النجم، فإذا ظهر أمير صغير لاتتركوني في كأبتي.. اكتبو لي إنه عاد.

في إحدى رحلاته الجويّة الاستطلاعية عام ١٩٤٤، تقلع طائرة سانت إكزوبيري في منتصف الساعة الثامنة صباحا من يوم ٣١ تموز، لكنه حتى منتصف النهار لم يكن قد عاد، وتمضي الساعات وطائرته لاتلمح في الاجواء وبناء على شهادة القس هرمان كروت فان طائرته قد أسقطتها الطائرات الالمانية في البحر، ليتذكر العالم مقولته الشهيرة التي كتبها في روايته طيران الليل: "الغرق في وسط المحيط أهون من الغرق في هذه الصحراء».

يكتب اندريه جيد عن الوجه النبيل لسانت إكزوبيري: " حيث الرجولة لم تمسح بل زادت في لطافة ملامحه الطفولية المشرقة " هذه الملامح التي حولت الطيار الشهير الى امير صغير يلوح لنا وهو صاعد ألى السماء : " وعندما سأطير على جهازي الجديد، ستصيح الجماهير : ليحيا انطوان دي سانت إكزوبيري.

دائما ما يتم وضع مقارنة بين كتابات سانت إكزوبيري والافكار الفلسفية التي طرحها الفيلسوف الفرنسي الشهير " بليز باسكال " ، رغم ان إكزوبيري كان يسخر من الذين يصفون رواياته بالفلسفية ، فقد كان يصف كتاباته بانها " مقالات حرة " ، ويعترف ايضا بانه متاثر جدا بمؤلفات روسو ومونتاني ، وتسحره جمل باسكال التي يصفها بانها شاعرية . كانت هناك اشياء مشتركة تجمع بين باسكال وإكزوبيري ، فالاثنان كانا من علماء الرياضيات وفيزيائيين . والاثنان احبا المحيط الجوي والكواكب . والاثنان احبا التفكير الفلسفي ، لكن افكار باسكال الذي اهتم بفلسفة العلوم ، لكنه تحول تحول في اواخر حياته من العلوم الى دراسة اللاهوت كانت اكثر التصاقا بعلوم العصر ، كان بليز باسكال المولود في التاسع عشر من حزيران عام ١٦٢٣ ، مريضاً ، وفي اللوحات الفنية التي رسمت لوجهه ، يبدو متعباً عيناه دامعتان ، ينظر الى الأفق بحزن، غير إنه حقق الكثير في وقت قصير. أصبح باسكال عالماً بتشجيع من أبيه، واشتغل على الفراغات و صمم مقاييس الضغط الجوي. في سنة ١٦٤٢، اخترع آلة حاسبة ميكانيكية كان بإمكانها الجمع و الطرح باستعمال قلم لتحريك أقراص مرتبطة بمعدات معقدة ، صَنع هذه الآلة لمساعدة أبيه في تدبير الحسابات. وتعتبر هذه الآلة إحدى أوجه تقدم العلوم التطبيقية. إنها فعلاً اكتشاف جدير بالاهتمام، فهو الذي أوصل الإنسانية إلى الحاسبات الحديثة وما يمكن أن تصل إليه في المستقبل. فقد وضع تصميمها ونفذ أول نموذج منها سنة ١٦٤٢ واستمر بعد ذلك لتسع سنوات في تطوير آلته، بالإضافة إلى كونه عالماً و مخترعاً، فقد كان عالم رياضيات عظيم. كانت أفكاره الرياضية الأكثر إبداعاً هي أفكاره حول حساب الاحتمالات. لكن الناس سيتذكرونه كفيلسوف مثله مثل ديكارت.فيما كان إكزوبيري يهتم بالتصوف الفلسفي ، ويميل الى الفلسفة الرواقية .. لم ينس ابدا ان الارض للبشر : " ماذا سأكون اذا لم اكن مشاركا في القضية العامة ؟ ولكي افهم كنه كياني فانا ملزم بالمشاركة " ، ولهذا نجد إكزوبيري مشاركا في كثير من الامور التي حدثت حوله : في الحرب الاسبانية ، وفي الطيران فوق اراض مجهولة ، وفي الحرب ضد النازية يكتب : " حين تحترق الغابة ، يأخذ دلوا كل من ليس وغدا " . ونجد ان افكاره عن الخير والحرية والعدالة وانتصار الحقيقة تتكرر في معظم اعماله ، حتى ان اندريه جيد كتب في رثائه : " كتب كتابا واحدا طوال حياته .. كتاب الانسان " .فهو يؤمن ان كل ما يأتي من الحياة ، يصنعه المبدعون الذين يستطيعون ان يصيروا " نساكا " لان الفن الذي ينبثق من الحياة ، ويكون على صلة مباشرة بهذه الحياة هو فن انساني ومتفائل . يكتب اندريه موروا : " كثيرون هم الكتاب الذين حدثونا خلال السنوات الأخيرة حول نقاط ضعف الانسان . وها هو إكزوبيري احد الذين حدثونا عن عظمته " ...

أنطوان سانت إكزوبيري ملجأ للخروج من قعر البؤس الإنساني

سوسن الأبطح

هذه السنة تستذكر فرنسا أديبها الطيار أنطوان دو سانت إكزوبيري. بمناسبة مرور ٧٥ عاماً على صدور روايته «الأمير الصغير» التي أنست القراء كتبه الأخرى، وتُوج بطلها على رأس الأبطال الروائيين، بشهرته ونباهته وحسه الطفولي اليقظ. وقد اختار سانت إكزوبيري أن يكون بطله طفلاً، وأن يجعله يعيش خارج الكوكب، فأمن له عنصرين، هما النقاء والفضول الذكي الذي لا تعكره الحسابات اليومية، فبدت كلماته حكماً، ورؤاه تمهد دربا لمن ضاعوا في غمار الصخب والضجيج.

عاد الكلام عن القصة التي أغوت الصغار بقدر ما خلبت الكبار، ببساطتها وعمقها في وقت واحد، وعن الأرقام المذهلة للمبيع التي سجلتها، ولا تزال تحصدها.

وقد حصلت فرنسا، قبل أيام، بفضل هذا الكتاب الصغير في حجمه الكبير في تأثيره، على المركز الأول في الأعمال الأكثر ترجمة في العالم، تتبعها إيطاليا في المرتبة الثانية، وفقاً لتصنيف وضعته منصة «بريبلاي»، بعد استبعاد الكتب الدينية التي تأتي دائماً متوجة لأي كتب أخرى.

فقد بلغ عدد ترجمات رائعة سانت إكزوبيري التي نُشرت لأول مرة عام ١٩٤٣ (أي قبل سنة واحدة على وفاته) أكثر من ٣٨٢ لغة ولهجة، وفقاً لدراسة اعتمدت على بيانات جُمعت من أكثر من ١٥٠٠ مكتبة حول العالم. كما أنه الكتاب الأدبي الأكثر قراءة، إذ تباع منه نحو ١٤٥ مليون نسخة في السنة. فقد بيع منه في فرنسا وحدها نحو ١٢ مليون نسخة من سنة صدوره. ويزيد من حصة هذا الكتاب في المبيع أنه دخل في المناهج المدرسية لعدد من الدول الفرنكوفونية.

قصة «الأمير الصغير» كانت -ولا تزال- مصدراً لإلهام الرسامين والروائيين والسينمائيين وفناني الشرائط المصورة والمسرحيين، بفضل قدرتها على إثارة الأسئلة، وما تحمله من أفكار تسمح بالتأويل والإضافة، والحلم والإبحار في الخيال. لهذا نشط الفنانون هذا العام لتكثيف أعمالهم حول رائعة سانت إكزوبيري. وتجاوز الأمر ورش الكتابة والتحقيقات والأفلام والرسم والمسرح، كما الموسيقى والحوارات، ليصل إلى تزيين الهدايا التذكارية، وتنظيم مسابقة في عمل المعجنات مستوحاة من شخصية «الأمير الصغير»؛ طرق بديعة لإبقاء هذا الكتاب حياً في الوجدان، حتى لمن لا يجدون رغبة في القراءة، إذ تدسّ لهم المعلومات وروح النصوص الأدبية في الخبز والحلويات.

وللتذكير فقط، فإن «الأمير صغير» المكتوبة بحساسية يقظة، وبساطة عميقة مدهشة، هي عن ذاك الطيار الذي أخفق في أن يصبح رساماً بسبب نصائح الكبار الفجّة، حيث أسدي إليه النصح وهو لا يزال في السادسة يحاول رسومه الأولى بأن يتوجه لما هو مفيد، مثل التاريخ أو الجغرافيا أو الحساب. وذلك درس أول من مجمل الدروس التي لا تنتهي في حكاية آخر ما يمكن أن نتخيله ونحن نقرأها أن تكون ذات هدف أخلاقي. وهذه أهم خصوصياتها، فهي نبيلة المرامي، لكن علو الحس الأدبي ورفعة الأسلوب تحررانها من كل هذه القيود.

الحكاية هي على لسان طيار تعطلت طائرته، ووجد نفسه وحيداً في الصحراء، يوقظه طفل صغير من سباته وهو يوجه إليه عبارة: «من فضلك ارسم لي خروفاً». هذا المخلوق الذي حط بجانبه كأنما لينقذه من عزلته هو الأمير الصغير القادم من كويكب بالغ الصغر يدعى «بي ٦١٢»، الذي وجد نفسه مضطراً لمغادرة مكان إقامته بعد أن خذلته الزهرة التي أحبها، وفهم متأخراً أنها تبادله الحب، وتخفق في التعبير عما تضمره من مشاعر.

يجول الأمير الصغير الكواكب، ويلتقي بنماذج من المخلوقات لكل منها رؤيته التي تجعله يطرح مزيدا من الأسئلة التي تبدو للوهلة الأولى مجرد أسئلة لطفل بريء، لكنها توخز كالإبر في مشاعر القارئ، أما الإجابات فمنها تتناسل مزيد من التساؤلات في ذهن الأمير. ومع تجوال الطفل في الكواكب، نلتقي الحاكم الذي لا يرى في الناس حوله سوى رعايا عنده، ثم المغرور الذي يعيش في قوقعة أحلامه، ومن بعده يلتقي الطفل بسكير يشرب حتى الثمالة كي ينسى الخزي الذي يعيشه. «وما هو هذا الخزي؟ إنه الخزي من الشرب حتى السكر والنسيان». وفي كوكب رابع، يلتقي الطفل رجل أعمال مشغول لا يتوقف عن العدّ، ولا يرفع رأسه ليرى ما حوله، وحين يسأله الأمير الصغير ما الذي يعدّه، تأتي الإجابة: «أعدّ النجوم». وهي النجوم التي يملكها ليصبح ثريا، ويشتري نجوماً أخرى جديدة. ومن الطمع الذي لا أفق له ولا نهاية، وحب التملك الذي لا يبغي سوى مزيد من التملك، إلى نموذج آخر على كوكب خامس لرجل لا يفعل سوى أن يطفئ المصابيح أو يشعلها كأنه دخل في حركات لا إرادية. وحين يسأله الأمير الصغير عن السبب، يأتيه الجواب بأنها «التعليمات». فتلك مشكلة كثيرين لا يعرفون لماذا يقومون بأعمال يكررونها دون أن يسألوا أنفسهم عن الجدوى أو الغاية من تكرار أفعالهم، ودون أن تكون لهم جرأة التوقف أو الاستراحة لمساءلة الذات، وإن كان يجدر بهم أن يستمروا أو يتوقفوا. وفي كوكب سادس، يلتقي الطفل بجغرافي لا يعرف تضاريس الكوكب الذي يعيش عليه، ولا ما يحيط به، بحجة أن هذا عمل المستكشفين. وبما أن كل نموذج يعيش على كوكب، كما النموذج الأخير ولا يشاركه أحد عالمه، فالمستكشفون غير موجودين، وهو لن يعرف أبداً ما يحيط به.

وحين يصل الأمير الصغير إلى كوكب الأرض، يلتقي بفيض من الزهور لم يكن يعرف بها، وكان يظن أن زهرته الأثيرة في كويكبه الأول فريدة من نوعها لا مثيل لها، فإذا على الأرض ما هو أجمل وأبدع، لكنها زهور بالنسبة له بلا معنى؛ إنهن «جميلات لكن فارغات». فالعاطفة تجاه الآخر أو الزهرة هو الذي يمنحها بهاءها وقيمتها في نفوسنا.

القصة معروفة، وثمة لذة في قرأتها أكثر من مرة، لأن سحرها هو في أسلوبها السلس البسيط، وما تحمله من حكم متتالية، كأنما نسبح في عالم اكتشاف ما خلف السحب مع أنطوان سان إكزوبيري، هذا الطيار الذي تنوعت اهتماماته، وبدا كما الراوي في الحكاية الذي أصبح طياراً، لكنه قبل ذلك أراد أن يرسم، فكبحت رغباته. هكذا، كان الكاتب في طفولته حائراً متنقلاً بين المهن، فقد خبر أعمالاً مختلفة، فهو مخترع ومخرج سينمائي ورسام وصحافي وأديب فذ. ومن عوالمه المتعددة، استطاع أن يرسم عالماً روائياً بحيادية الأطفال. ويعتقد نقاد أن مهنة سانت إكزوبيري (طيار)، ورؤية الأشياء من عل، كانت من بين أهم العناصر التي ساعدته على الإتيان بنَص له جاذبية «الأمير الصغير»، وقدرته على رصد البشر كأنه في حالة فرجة، وليس منخرطاً معهم في المشكلات والتعقيدات نفسها. «جميع الكبار كانوا ذات يوم أطفالاً، لكن قلة منهم يتذكرون ذلك»، يقول سانت إكزوبيري. بيد أنه هو نفسه لم ينسَ تلك الطفولة أبداً، وبقي يحملها في داخله، وينهل من فيضها في كتبه ورواياته ومسيرته الصاخبة إلى أن لقي تلك النهاية التراجيدية.

فقد قضى أنطوان دو سانت إكزوبيري بينما كان على متن طائرة «لوكهيد بي - ٣٨ لايتنغ» التي أقلعت في مهمة استطلاعية فوق المتوسط، وبقيت وفاته لغزاً، وسبب سقوط طائرته غامضاً. أما «الأمير الصغير»، فقد كتبها في نيويورك خلال فترة ترك فيها بلاده ممزقة خلال الحرب العالمية الثانية بين النازية والمناوئين لها، وكان على المستوى الشخصي العاطفي يعاني اضطرابات شخصية. وقد صدر الكتاب في أميركا، قبل أن يبصر النور في باريس التي عاد إليها الكاتب ليلتحق من جديد بسلاح الجو، ويلقى مصيره الغامض.

ويستذكر الفرنسيون «الأمير الصغير»، وكاتبه الكبير، وهم يرون حاجة استثنائية في المرحلة التي نعيشها إلى مؤلفات سانت إكزوبيري الذي عاش مرحلة صراعات وفوضى وتمزقات يرونها شبيهة بالتي نعيشها اليوم. وهو بعينيه الثاقبتين، ومن خلال «أميره الصغير» شخّص الداء، ووصف الأعراض، وكتب نصاً يتسم بالحكمة والفلسفة للخروج من قعر البؤس الإنساني إلى رحابة الفكر.

عن الشرق الاوسط

الرسالة الأخيرة ... دو سانت إكزوبيري

رؤيا سعد

" إن من يهب الأشياء جمالها شيءٌ خفيٌ لا تراه العيون "

كان أنطوان دو سانت إكزوبيري (١٩٠٠-١٩٤٤) طيار مشهور وروائي حاول من خلال رواياته أن يعثر على معاني السلوكيات وتحليل القيم الأخلاقية في أوساط المجتمع المتحول بسبب التقنية الحديثة.

"عالم البشر، لم ير به إلا كبارا، لا يدركون عبث كل ما يصنعون، وحدهم الأطفال بحبهم لدمية وحزنهم لكسرها يعيشون حقيقة المحبة" . من رواية الأمير الصغير.

من حيث الشخصية فقد كان انطوان يتمتع بشخصية مميزة فهو رجل رقيق شفاف حالم ذو عقليه فنتازية خيالية يعيش أوقاته مع أسرار الرياح والرمال والنجوم، وكان واحدا من المغامرين الكبار والروائيين المدهشين وهو اليوم الأكثر شهرة على الإطلاق من خلال اشتهاره بروايته الأمير الصغير ذات البعد الإنساني والفلسفي الكبير، وهي تحكي لقاء بين طيار قد تقطعت به السبل وأمير صغير يعيش في كويكب.

ولأنطوان قصص وروايات أخرى لاقت رواجا كبيراً وجميعها تحوم حول تجاربه الشخصية كونه من الرواد في الطيران الفرنسي في عصره.

وعلى ما يبدو أنه كان يعاني من أزمات نفسية بسبب مهنته ووقوعه أسيراً وفق ما نستشفه من رسالة كتبها إلى أمه التي كان دائماً يتداول الرسائل معها؛ كونه لا يستطيع الاستغناء عنها بعلاقته الوثيقة التي تجمعهما وسبق ونشرت مجموعة من رسائله في كتاب جميل بعنوان رسالة لأمي (دار غليمار). فيقول :-

"لقد عانيت الانهزام والانكسار والوحدة القسرية في الأسر ..."

لكن رسائل دو سان اكزوبري التي بعثها لحبيبته "رينيت" التي كان يحبها وافتتن بها بعد أن تعرف عليها في الجيش ووقع في غرامها وهو في مهمة بين مدينتي الجزائر ووهران ، تخبرنا من خلالها بأنه كان متلهفا للقاء تلك الحبيبة كونه كان يحرص على أناقة الرسائل المزينة بختمه المميز برسمة الأمير الصغير والذي كان يرسم تخطيطاته بيده، آملا أن تنال إعجابها لكنه كان يريد بذلك أن يغطي على شخصيته المرهفة الخجولة التي تمنعه من التعبير عما يخالجه من عاطفة نحو الفتاة.

رغم جمالية فحوى الرسائل، إلا أنها تتسم بمسحة حزن حيث أحس بأن الفتاة لا تشاطره العاطفة بنفس الدفق "حب من طرف واحد" وسرعان ما تنبه لذلك فكتب لها "في ٢٢/ يونيو / ١٩٤٤:

"لقد اتخذت قراري فمنذ الآن لن يكون هناك أمير صغير يناشدك ولا حتى بعد غد فأميرك الصغير قد مات .... وبعدها بأسابيع اختفى.

بعد هذه الرسالة، وتحديدا في يوليو من سنة ١٩٤٤ تاه إلى الأبد ولم يعرف له مكان، وكذلك مكان طائرته المجهولة، ومن المرجح أنه انتحر لتفاقم الأفكار والتساؤلات الوجودية في رأسه، وقد رجح أيضاً أنه لاقى حتفه في أعقاب إحدى المهمات الاستطلاعية عام ١٩٤٤م، ولم يتم العثور على جثمانه إلا مؤخرا ١٩٨٨م وفق بعض الروايات غير المؤكدة" .

من رسائله لحبيبته رنيت:

رفيقتي لقد ضعت في زحمة أفكاري، وآن لي أن أجدني مهما كلفني الأمر. علي أن أسعى لوجودي .

عزيزتي رنيت أنا لا أفهم شيئاً في هذه الحياة، عدت الآن ولكنني لم أجد منك شيئا .. لا تتعبي نفسك في الكتابة إلي فأنا لا أستحق منك أي عناء، سأقطع الأمل منك ولن أخاطبك بعد الآن ولن أرسل لك أي عنوان. بت مضحكا للغاية فلا معنى أن أستجدي منك المحبة، أنا كنت بحاجتك وأنت لست بحاجتي .. لاتبتأسي فهذا أمر طبيعي. الليل يستمر ببطء، وببطء أنام، لكنني أخاف البوح بأسراري ويقلقني نسياني لضغائني وهفواتي. هذا أمر خطير يا إلهي، فهل أنا مفتون بضعفي؟.

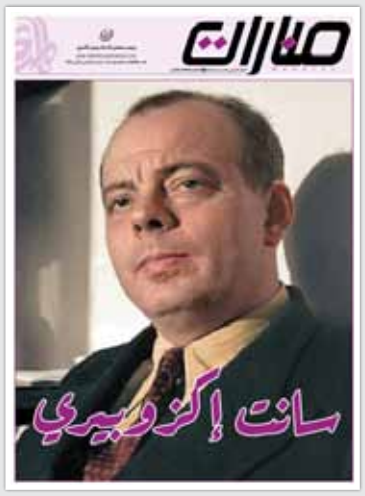

manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام
والثقافة والفنون

رسائل أنطوان دي سانت إكزوبري لنا

نعيم عبد مهلهل

روت كونسويلو أسونثين، أرملة الكاتب الفرنسي أنطوان دي سانت إكزوبري (١٩٠٠ . ١٩٤٤)، في «مذكرات الوردة»، الذي صدر عام ٢٠٠٠، عقب وفاتها، أن زوجها وصف لها ذات يوم مشاعره كغريق تحطمت طائرته فوق البحر فقال: "إنه من السهل أن يموت الإنسان غرقاً. دعيني أروي لك ذلك: يجب أن يدرك المرء بسرعة، إنه لن يستطيع تنفس الأوكسجين، بل يجب أن يتنفس الماء بواسطة رئتيه: ينبغي ألا تسعلي، فالماء يجب ألا يتسرب عبر أنفك. ستشعرين بالراحة، مثلي، وأنت تتنفسين جرعة الماء الأولى" . إنه بارد، وكل شيء سيكون على ما يرام بعد ذلك ليلة ما عندما كنت أعيش سعادة اكتشاف اكزوبري اكتشف يوميات امرأته وتحدثت الى زملائي عن مشاعر الغرق التي تسكن رجل يعيّ ، فيما لانعرف نحنُ المشاعر التي تسكن أجساد الذين يغرقون هنا واغلبهم من الاطفال وفي فصل الصيف .

ولأني أريد أن أبقيّ الليل معي في جمالية ما كان يراه الروائي الفرنسي وصاحب أشهر بريد في تأريخ الأدب بعد المارثون الإغريقي ورسائل الزاجل العربي ، وما كان يرسله روميو الى جولييت ، أصبحت روايات إكزوبري وبريده الصحراوي متعة للغة والخيال وصار المزج بين صحراء إكزوبري ومياه أهوار جلجامش مهمة روحية تذكرت فيها حلم أحدهم أن تكون صحراء مراكش مع امرأة فرنسية هي ما كانت تتخيله شهرزاد وهي تقص على شهريار حكاياتها الغرامية.

في ذلك الليل حيث صوت القصب مثل همس غرام بين الريح والماء وشهوة السمك الغافي في قاع الطين عندما كنا نتصفح رواية بريد الجنوب وكل منا يحمل حقيبة رسائله الى أمكنة بعيدة يريد بها الوصول الى أمنية حتى لو كانت واحدة من مدن الصحراء التي كان أكزوبري يرى الغرق في رمالها نشوة الحصول على المطلق الشجاع الذي يمكنك بواسطته أن تتحول من انسان عادي الى اسطوري.

أغرم صديقي المعلم بروايات اكزوبري واطلق كلمته :الرواية الجميلة هنا تكون بحجم المستشرقين والمغامرين ورجال الآثار. تلك فحوى رسائل اكزوبري لنا ، علينا أن نستوعبها....!

ذات يوم أبقى المعلم لنا روايات أكزوبري التي اشتراها من مكتبات بغداد وبيروت ورواية أخرى هي الامير الصغير أرسلها له صديق من مدينة (مكناس) تعرف عليه بركن التعارف في إحدى المجلات ، أبقى لنا تراث اكزوبري منضودا بين كتب الدولاب الحديدي في مكتبة المدرسة وهاجر الى مكان لم يعرفه الجميع.

انتظرناه في بداية العام الجديد ، لكنه لم يداوم كبقية المعلمين ليمر اسبوعين ويتم اعتباره مستقيلاً...

مرت سنوات ، وكلما تصادفني رواية لسانت اكزوبري أتذكر صديقي المعلم وأتساءل أين هو الآن ...؟

ذات يوم في عودتي الى المدينة الأمّ صادفت في السوق أخا المعلم الذي كان مغرماً بالروائي الفرنسي وأول أسئلتي له : أين زميلي المعلم ثامر ؟

دمعة قفزت في عينيه .

وقال :لقد توفي هناك دون أن نشيع جثمانه .

مع دموع أخيه جاءت القصة : لقد هاجر قاسم الى المغرب ، وعشق سياحة الصحراء ومحاولة التمتع بالغرق في الرمال وذات مرة كان يمارس حلمه بين التلال الرملية بعد أن كان يعمل دليلاً سياحياً مع امرأة فرنسية .

غابا وتاها في عاصمة رملية شديدة في الصحراء وبعد مرور شهر وجودهما فوق احد التلال الرملية غافيان بقوة وكأنهما يمارسان الغرام للتو....!